فتح عثمان الورقة، وراح يتمعّن في حروفها. ألقى سيجارته جانباً. أعاد قراءة الورقة مرة أخرى. حروفُها كُتبتْ بخط صغير: «نأسف على هذا الإزعاج.. اليوم هو الأول من ابريل..». التوقيع: صحيفة **الشروق**.

شعر عثمان بانكسار داخليّ شديد: خليطٍ من الألم والمهانة. التفت حوله، وراح يرقب أولئك الذين ينظرون إلى السماء بانتظار الخروج من دائرة الوطن □.

قصص من الكويت

سليمان الشطي

جمل

لا...! لن تكون مثلهم..
ولا أنا..!
وحقّ أرضنا....!!
إيّاك يا صديقي يا جمل..!
إيّاك أن تيأس أو تلين
إيّاك أن تكون مثل آخرين

أدمغةٌ قد نزعتْ مخاخها
محشوةٍ بالرمم الملفقه
تفوح من أنفاسها رائحه
تعرفها المزابلُ المحترقه..!
إيّاك يا صديقي يا جمل..!

أحمد العدواني

1 قال أحد المتفائلين:

ـ ليس لك إلاّ لبنُ الناقة. وسيُشْفى والدُك إنْ شاء اللّه خلال شهور.

الأمل باحث أبديّ، لا يكلّ؛ سهمٌ موجَّه إلى نقطة اليأس التي أصبحتْ مسافتُها متّسعة.

صوتُ نَفَسه المرتفع يزداد حدةً. استحضرتُ تراقصَ عينيه بيننا. نبرات الطبيب الأجنبيّ هادئة. رطن أمامه بجديّة:

ـ لا فائدة، المرض متمكّن من والدك. الأفضل أن تعود به إلى وطنه ليكون بين أهله.

2 جلسنا متقابليْن في الحديقة الممتدة. لم أعد أُحسّ بالخجل من نظرات العابرين وهم يدقّقون في تربُّعه الخاصّ. وقال: إذا كان لا بدّ من حليب الناقة فليكن معها جمل.

أَحسّ أنّ علامة الاستفهام عندي تتحرّك. وانطلقتْ عنده هو أيضاً رغبةٌ في الحديث. كان من قبل يَطْرب لصوته عندما يغني ويتلو محفوظاته من الشعر النبطيّ. ولكنّه في هذه المرّة انفتقتْ ذاكرتُه، فراحت شذراتُ الماضي تَنْفض عنها الترابَ.

بينما كانت المدينة تستعدّ للانتخابات كان هناك جملٌ يحرّك رقبته بتعجُّبٍ مخزونٍ آلافَ السنين، لعلّه يستعيد أحداثَ الشهر الأخير عندما بدأت الحالةُ الغريبةُ، حيث كان يُدفع به في الشاحنات مُوثقاً بحبالٍ خشنة، ثم يُقذفُ به أمام خيمة ويُربط حولها. تمرّ عليه ليلة أو اثنتان أو أكثر، يلاحِظ أنّ بعضهم يُعنى عنايةً خاصة بإبرازه ليكون على مرأى من العيون العابرة. وهكذا قضى أيّامه الأخيرة وهو يُطاف به من مكان إلى آخر. وقبل أيام دار بالقرب منه حوارٌ بين مالكه ووجهٍ آخر غريب:

ـ في كل الصحارى لن تجد مثل هذه القامة.

ـ حقاً، هامتُه تثير الهيبة.

ـ أنت تكتري جملاً أصيلاً، فيه هدوء مفيد. سيبقى سنامه مشرفاً من فوق. ستراه كلُّ العيون العابرة. إنّ خيمة دون جملٍ قطعةُ قماشَ، وحديثٌ دون دسومة، وفتاةٌ محجَّبة تضع خاتماً من الألماس فوق القفّاز.. هه.. هه.

كان المتحدِّث مندفعاً في وصفه. أما مستمعه فقد استبدّ به هاجسٌ داخليّ يتشكّل بفعل كلمات كان قد قرأها في تعليق تحليليّ حول الظاهرة الجَمَليَّة والانتخابات. ولقد تناول البحث، بلغةٍ غيرِ مفهومة، العلاقة بين الانتخابات والجمل وأنّها:

«ذات بعدٍ نفسيّ واضح؛ فالعمق القبليّ في الذات يستدعي عمليةً متواصلةً السيولة تَسْتَخرج الكوامنَ المستقرّة، وتَخْلَق وهماً يحطّم حاجز التردُّد. ومن ثم فإنّ الدخول إلى العقل لا يتمّ إلاّ من منطلق تنبيهيّ، ولكنْ لاشعوريّ. وذلك لأنّ تحريك العقل المفكّر، إنْ حدث، يفتح أبواباً قد لا يتقبّلها مَنْ يريد التأثير لا الإقناع. ولا شكّ أنّ مصالح كثيرة تعتمد اعتماداً كلياً على استثارة النفس وإخضاع العقل الواعي للاوعي، ومن ثمّ تكون

الاستجابةُ لكلّ الآراء المطروحة لاإراديّةً، وتحققُ قبولها يَبْرز في لحظة متميِّزة. ولمّا كان الفردُ الناخِب عندنا في عجزه أو فقدانه التدريبَ الكافيَ لمواجهة اللحظة، ولا يَمْلك مقدرةَ التخلُّص من الإحراج، إضافةً إلى أنّ سنوات القهر جعلتْه ينتظر الإملاء عليه من الخارج، فقد أصبح من الممكن التحكُّمُ في قرار اللحظة، لحظةِ الإدلاء بالصوت، مهما كانت درجةُ التنبُّه السابقة..».

لم يفهم شيئاً وقتها من هذه الألفاظ. ولكنْ، بعد قراءة مستمرَّة حَفِظها واستعان بمن يَفْهم هذه المعاني الغريبة، فتأكَّدَ من شيء معين، وهو ذلك التلازم بين الجمل والوليمة والنجاح في الانتخابات: «أَطْعِم الفمَ تستحي العينُ» واستعنْ بصاحب التأثير. وليس هناك أكثر من تأثير الجمل في الانتخابات، وليس من الضروريّ أن يكون ممّا يُستطعم لحمُه. وانتبه إلى صاحب الجمل المسترسِل في مدح بضاعته، قال له:

ـ قفْ لا تسترسلْ. مَنْ قال إنّ كلّ هذه الأمور تعنيني؟ فقط أريد الشكل. أم تعتقد أنّني أريد أن أركبه أو حتى أن آكله؟

ـ إنّ الذين تبرَّكوا به عَلَتْ أصواتُهم في المجلس السابق.

ـ بارك اللّه لك فيه. لك أجرةُ جملك، وفوقها زيادةٌ عند النجاح. حسناً أريده ثلاث مرات: الأولى عند افتتاح المقرّ الانتخابيّ لمدة ثلاثة أيام، ومرة ثانية بعدها بأسبوع، والثالثة الأخيرة قبل الانتخابات بيومين. وعند النجاح إنْ شاء الله، لك ثمنه مضاعفاً (وضحك) لتربّي لنا جملاً آخر من صلبه.

ـ سأتولى نحره بيدي.

وأخْرج صاحبُ الجمل مفكّرَته وراح يدوِّن المواعيد..

وبعد ثلاثة أيام حدث حادث، فاختلّ نظام التسجيل!

عندما استحوذتْ على والدي حالةُ التذكر اندفعتُ إليه حيويةً، فارتدّ نَشِطاً إنّ هذا هو زمنُ تذكُّرِ الرمال الصحراويّة على بساط أخضر، حين وضعتُ يدي على فخذ والدي لأوّل مرّة في لحظة فريدة سائلاً عن سنوات لا وقت عندي لإحصائها. تحرّك فيه شيءٌ قديم راسخ متوارٍ. فخرجت الكلمات من صدره، تروي حكايته مع الجمل القديم؛ والمتحدِّثُ عاشقٌ من نوع خاص.

كنا في المستشفى متقابلَيْن، ثم قمنا بجولة ترفيه في الطريق الأخضر الذي لم نر مثله إلاّ في أحلامنا المشوَّشة. قطعنا الطريق وهو يحدِّثني. كانت بقيةٌ من لمعةِ ضعفٍ أو حنينٍ مائيّة في عينيه، هي وحدها أَذْكرها في كلِّ لحظة. قال بشجن، وتهدّج الصوت:

ـ النسيان شيطان يحطِّم خيوط الترابط . لم أكتشف هذا إلاّ عندما جلس الزائرُ القادمُ من الأرض التي تركتُها، بعد سبعة عشر عاماً من فراقٍ قَطَعَ كلّ واصل بيننا، جاء ذِكْرُها لينعيَها إليّ. قال لي: «كانت تتابع أخبارك. لم تغبْ عنها. لم تكن تعسة أو سعيدة ولكنّها مطمئنّة».

تأمّل والدي البساط الأخضر. شرد بصره، وتحرّك لسانه:

ـ لم أر أمي منذ ذاك اليوم، ستون.. سبعون، لا أدري سوى أنّه زمن بعيد. وحين ينزاح عني شيطانُ المشاغل الأسر، أتذكّر فقط أنّها أمسكتْ لي بخطام البعير الأثير عندها، بعد أن استبدّ الجرحُ بوالدي فاستلقى بجانب بعيره الذي حمله إليها. أغفى، فتركناه. سرنا متتابعين، قالت: «ها هو الآمن. خذه. إنّه المُنْقذ الذي أنقذ والدك. أعرف صدق هذا الملمس، سيحملك ويحميك».

حفر متجذِّرة في وجهٍ عظاميّ لفحتْه رياحٌ سموميّة وهمومٌ متعاقبة، وجسدٌ نسي معنى الراحة. ولكنّها عندما انزوَتْ تحت ظلال الجمل المشرف فوقنا ربّتتْ على الفخذ بعاطفة مخزونة:

ـ ارحلْ ياولدي. كلُّها أرضُ عرب، فانتقلْ من هنا إلى هناك.

ـ ولكنْ.. أمي.. رحلتي بدونك ضياعٌ وعذابٌ لي.

لم تلتفت. العين تَطْرف، ولكنّها متعلِّقة بآخر مدى الرمال التي ستُودِعني إيّاها. يدها على بقايا بطنها:

ـ لأنّ كلماتِ مَنْ قبلنا لم تاتِ متوافقةً، اختلفوا، فكان الذي كان. ها هم ثلاثة يرقدون في التراب قبل أن يتجاوزوا الطفولة، وخمسةٌ على رمالها رجالاً قبل أن تواريهم الأحقادُ فيها، واثنان لا أعرف الآن في أيّ جهةٍ هُمْ. وها قد جاء دورُك بين رحيلين، فدعني أخترْ لك أَسْلَمَهما.

تحرّكتُ فامتطيتُه. أسندتُ بندقيتي على الرقبة، وأشرفتُ على الصحراء المتّسعة. قدماه تلامسان الوهدات والكثبان، يعلو بي ويهبط، بينما كان الظهر مستقيماً. يسير كأنّه سفينة على ماء ساكن راكد. كلّما أوغلنا اتّخذ بعيري هيئتَه التامة. الهيكل الضخم، تناسقٌ بين القدمَيْن الموّارتين اللتَيْن تسبحان بيسر، والساقين اللتين ارتفعتا عمودين راسخين كأنّهما ارتفعا من باطن الأرض أو انحدرا

من السماء. بينهما صدرٌ اتّسع ما بين المرفقين والعضدين. يرفع رأسه المتماسك وكأنّه يطمئنّ إلى ما يَرى. وخلفه نزاع عجيب، وحقد، وجروح متقيحة. يومها تلمستُ منفرداً البندقيةَ، فوهتُها في الخرج. لقد قررتْ لي أن لا أصنع قتلاً في دماءٍ هي مني. صوتُها معي:

ـ دعني أحلمْ بأنّك ستحيا. أن تكون الحيَّ البعيدَ خيرٌ من القتلى القريبين. هذه أرضُكَ، فلا تنزوِ في ركن النار وحده.

هي هجرة من صحراء إلى أخرى، والعين متّجهة شمالاً...

أول اللّيل، الغسق، ولكنّني أرى من بعيدٍ بعينٍ حادة وحذرة. الحامل والمحمول متقاربان سناً. الجسد والسنام يشكّلان كتلة واحدة متماسكة. انتَ لم تر مثل هذا المنظر الأنيق المرأى وسط الظلام المسفر. وتساوت دقاتُ القلبَيْن بعد أن تلاشى خوفُ الراكب الذي كان يَحْسب الأرضَ الساخنة تحت قدميْه لهيباً لا يحتمي منه إلاّ مَنْ يحمله مثلُ هذا البعير. حينئذ ارتفع صوتي، لأوّل مرة منذ زمن، مغنياً.

في أيامنا الأولى كان السيرُ ليلاً. أما في النهار فإنّ هيكل الجمل يمتدّ متوارياً بين الأكمات، فيصبح في التصاقه كالأرض سواء بسواء. أُربِّت على الجنب، يُصدر صوتاً خفياً، يميل إلى الأرض ليبرك، الشمس فوقنا، يأتي النوم، بينما يحرّك الهواءُ شيئاً من سافي الرمال.

سكت والدي. تلمّس موضعَ العملية في صدره. تفحّص البساطَ الأخضر. مَلكَه صمتٌ ومراجعةٌ، ثم حشرج مُكملاً حديثه:

ـ ورأينا المدينة شيئاً راكساً، ووراءه ارتفعتْ مياهُ البحر. كانت أشباحها الطينيّة تَلُوح من بعيد، وخلفَها زرقةُ السماء وكأنّها منطلقة من الماء الذي رأيتُه لأول مرّة. ماء البحر جعلني أحسّ أنّ هذا الجزء الصلب الذي يَنْخر في جسدي لم يعد له مكان. لا بدّ من أن أتخلّص منه، لن أحمله معي إلى هذه الأرض. لذا واريتُ صلبَ البندقيّة حفرةَ الرمل. تلمستُ بقايا الرصاص في الجيب القريب من الصدر، كوّرتها في خرقة ودسستُها في حفرة. أحسست بخفّة، فاستويتُ على جملي خفيفاً منتشياً؛ لقد اغتسلتُ من الخوف. هرولنا معاً كأنّنا نرقص رقصة واحدة جديدة مبتكرة.

ودخلنا المدينة..

الانتخابات تفجّر الفضول. ولأنّ الاستسلام للمكان الواحد ليس صفةً معروفةً أو ثابتةً عند الجمل، فقد تحركتْ فيه رغبةُ تجوالٍ متأصّلة. ومع عتمة ذلك اليوم تحرّكَ حركةً عفويةً، فانسلّ الحبلُ انسلالاً رفيقاً من جسده، فسار هوناً فوق تضاريس الأرض. وكلّما جذبه مرأى خيمة تحوّل إليها بهدوء الوقار، غيرَ مبالٍ بأيّ اضطراب يُشيعه مسارُه على الطريق المعبّدة.

اجتاز «الأروقة» بمهارة وخبرة أصيلة، يمدّ رقبته بينها، فتَمْسح العينُ ما في الداخل، حيث أجسادٌ متلاصقة تُهَمْهِم، وقد امتدّت في الوسط بسطةٌ عليها أطعمةٌ منوّعة. وقد يَجْفل، في مكان آخر، بفعل صوتٍ منفجرٍ يقول:

ـ إنّ كلّ ما يُطْرح حول الإصلاح الإداريّ والتربويّ والاقتصاديّ والإسكان والمادة الثانية والمحاسبة والاستثمارات الخارجيّة يجب ألاّ ينفصل أو يبعدنا عن مفهوم العدالة الاجتماعيّة وحاجةِ الأفراد وحل مشاكلهم الخاصة التي سأحملها على عاتقي (وضَرَبَ رقبته)!

انفعالٌ صارخٌ طقطقتْ بعدها قوائمُ الجمل الهارب، وازدادت الأصواتُ حدةً. تسارع جفولُه منذ أن أضيئت الأنوارُ الكثيرة وتزاحمت الأصوات. توارى. وعندما رأى رأسَ خيمةٍ في ظلمة نائية تَظْهر وتختفي بفعل أنوار السيارات المتقاطعة، اندفع، وكان اندفاعُه خاطئاً، أدى إلى أن يكون ثالثَ المتصادمين والضحيةَ الوحيدة.

تكونتْ عناصرُ الحدث في صورة تثير التبسُّم. فلقد انعطفت السيارة بقوّة خروجاً عن أيّة إرادة؛ إذ انتبه قائد الشاحنة متأخّراً إلى أنّ طريقه الهادئ المأمون تحوّل إلى طريقٍ فَرِحَ بأنواره، وكان خيالُه قد امتدّ إلى زوايا ساخطة من حياته المضطربة، وبدأ يَفْقد نشوةَ آخر كأسٍ احتساها منذ أيّام، إضافةً إلى أنّ مفعول سيجارته الخاصة قد تلاشى، فاستيقظ وعيُه على ارتعاشة خفيفة لديه، يكاد جسم السيارة الصغيرة التي تحاذيه يرتطم بشاحنته.

كان الشباب يضحكون ضحكاتٍ عالية. فقد اعتادوا في الأيام الأخيرة أن يبدّدوا شيئاً من ملل المساء بزيارة مقرات الانتخابات. وعندما استلموا الطريق كان الشارع المتّسع بضفتيه قد توزعتْ من حوله خيامٌ وسرادقاتٌ كبيرة امتدّتْ أفقاً، غُرستْ في جوانبه الأعمدة، وطوابيرُ سيارات يدل سيرُها على أهداف غير محدّدة. الأصوات المكبّرة والأضواء ألغت معنى كلمات شعريّة قديمة حول

الصحراء وسكون الليل. اللافتات أصناف منوّعة تشير إلى تعدُّد العقول التي تفتقتْ عنها، لتمتصّ عيوناً عند بؤر تتوسَّطها أسماء: «انتخبوا مرشَّحَكم!!».

كانوا يبحثون عن إعلانٍ تاه وسط هذه كلها. وفي خضمّ الومضات المثيرة للفضول والارتباك أشار أحدُهم، فكانت الاستجابة السريعة من سائق السيارة الصغيرة في اللَّحظة التي تلاشى فيها أثرُ السيجارة عند قائد الشاحنة. كادا يصطدمان، ولكنّ ردة الفعل الموقتة جعلتهما يتباعدان بقوّةِ ردةِ الفعل المدروسة، وكاد الأمر ينتهي بالنسبة إلى هذين عند هذا الحدّ.. لولا الثالث!

هذا الثالث استلقى، وقد انهرس جزءٌ من لحمه، وطقطقتْ بعضُ عظامه، وتهدل مشفراه، بينما انفتَح الفم شراعاً متراخياً. وكان صوت الألم يصعد من احتكاك مؤلم في الرقبة يوحي بمكتوم كثير. واشتعلت المنطقةُ بأضواء السيارات المتجمِّعة حول هذا الهيكل الضخم المكتوم.

كانت عينا الجمل المتألِّمتان تنطقان بعجبٍ يقول إنَّ كل شيء بالنسبة إليه كان مبهماً.

قلتُ لوالدي وهو جالس على سريره:

ـ ودخلتما المدينة!

ـ أقول لك، في المدينة، السنوات لا تتشاجر، ولكنَّها تتدافع وتنصهر فتذوب أشكالها وتصبح واحدةً. في الصحراء لم يكن هناك معنى لحدود القدم في الطريق؛ فكلُّها طُرقٌ، والخفُّ ينزلق أينما شاء. ولكنْ عندما أقبلنا على أزقة المدينة الضيِّقة أحجم وبَرَكَ عند المشارف.

نزلتُ ورحتُ أقوده بين الطرقات. سار فيها، والحيطانُ تتجاور حتى تكاد تنجذب إلى بعضها، وكلَّما توغل ازداد الضيقُ وتعقّد الاحتكاك. ولكنّ استجابته كانت سريعة، فأحسن السير فيها. نجحنا في العيش معاً، ولكي نأكل قَبلْنا كلّ ما يُعرض علينا.

توقف والدي عن الرواية حينما أقبلت المرضة تَدْفع أمامها عربةَ العشاء، ثم تابع:

ـ من الممكن أن يأتي الخطأ حين تحاصرك الحاجة. ولقد رأيتُ دافعاً يدفعني إلى نفض الماضي، لعلّي أجد لي طريقاً. ولم يبق من الماضي إلاّ هذا الجمل، فبِعْتُه. وبقيتْ عيناي بعد ذلك معلَّقةً تلاحقه وهو يجوب الشوارع وتتقاذفه الأيدي.

وقُدِّر لي أن أشهد الخطأ الذي لا مردَّ له حينما سالت دماؤه أمامي، وأنا واقف يلفُّني العجز.

جَرُّه صاحبُه الجديدُ من خطامه. سار به حتى نهاية اللِّسان البحريّ. تحت عينيْه أوحالٌ وسط النقر الصخريّة، وقد ارتفعت نتوءاتها تنحز خفيةً. وكان من الممكن ألاّ يستقرّ مكانه، ولكنّ زمن التحوُّلات يطامن أشياء كثيرة.

خَلْقٌ كثيرٌ يتزاحمون. سفينة استندتْ إلى اللِّسان البحريّ وقد انفتحتْ أحشاؤها، ودبَّت الكائنات عليها. تعددتْ أحمالُهم: من صفيحة، إلى قربة، أو مجموعة قرب تدلَّت من جانبيْ ظهر حمار؛ فالماء هنا هو البضاعة الوحيدة.

أناخه صاحبه. لامستْه برودةُ القِرَبِ الضخمة التي اعتلت عليه، وتوزعتْ على أجزاء جسده. لكزه كي يتحرك، وتوالت قِرَبٌ كثيرة. أحسّ بثقل جديد عليه. افتقد ذلك الدفء القديم الذي كان يحسّه على ظهره. جاءته لكزةٌ من عصا ضخمة. حاول أن يتمطّى للوقوف. وهنٌ موقت قلَّل حركته. استجمع قوّته وأراد أن يدفعها في عضلاته، ولكنّ ضربة قويّة سرت تياراً كهربائيّاً صاعقاً، ثم أخرى، فثالثة. لم يصدر عنه صوت. رأيتُ وجه مالكه الجديد محمرّاً من الغضب، وقد تدلى من عنقه كيسٌ فيه قطعٌ معدنيّة. توالى الضرب، وهو يشير إلى معاونيه بالمزيد، بل إنَّه تحرك ممسكاً بعصا كانت بجانبه. وهنا برز صبيٌّ عابث أو جاهل غَرْتُه مكانةُ أبيه الجالس في صدر المجلس، فتحرك من مكانه إلى الجمل، فأولج عصا في مؤخَّرته وهو يدفعه.

اللَّحظة العظيمة التي يتحاشاها كثيرون، جاءت. فقد استدار، وارتفعت يداه، فاستوى بَدَنَةً ضخمةً ترتكز على رجلين. القامة ملأتْ الفضاء حتى تضاءل كلُّ ما حولها. وتنادت صرخات كثيرة: فقد تسلَّل الهيجانُ إلى الرأس الصغير، وتحوَّل جسدُ الجمل إلى قوّة خارقة، فكان الفزعُ كبيراً. اختلطتْ أجساد كثيرة، بشراً ودواباً، وتقاذف كثيرون في الماء الوشل فتطاير رذاذ طينيّ.

ارتدَّ الجملُ خلفاً باحثاً عن واحد محدّد. لحظةً من زمن عصفتْ فيه كلّ خلايا الصبر، فتفجَّر من مكانها ما استقرّ في زواياها من ماسي أزمانٍ تتالت.

كان الرجل المقصود جالساً في صدر المكان، سيداً مستقراً منه يَنْبع الأمرُ والنهيُ، وبسببه انطلقتِ العصا المستهترة. وحين رأى الجمل مُقْبلاً عليه عرف ربَّه؛ أدرك أنّ القادم يقصده. وعندما هشَّمتْ يدا البعير المنحدرة ما تحتها، كان هو قد انزلق بعيداً مصفرّاً مرتعشاً وقد أطلق جسده بعيداً.

وتكاثرتْ عصيٌّ كثيرةٌ تحمي السيدَ الهارب. كانت مياهُ بعض القرب قد انسكبتْ، وأخشابٌ وقطعُ حديد

تكاثرتْ فدفعتْه إلى قاع. وكان جسده قد استفرغ طاقته، فاصبحتْ بقاياه مستجيبة لهذه القوّة المتجمعة، فهوى بثقله إلى جانب السور الصخريّ. الماء الضحل لم يَحْمِ هذه الكتلة المتهاوية. أسنّة الصخور تحت الماء الوشل المخضر بارزةٌ، وقد ترقرق الماءُ فوقها يغطيها وينحسر عنها فتبدو سكاكينَ مشرعةً إلى السماء.

انحشر الجسد الضخم بين صخرتَيْن تجاوزتا حدّ الماء. انغرس، تحيط به أشواكٌ وإبرٌ من نوى متصخّر تَحْفر داخل الجسد الحيّ. وتطاير رذاذ كثير مِنَ الذين تقاطروا مِنْ حوله، يواصلون هياجَ الضرب لصالح ذاك الذي استلقى على ظهره بعد أن تعثّر. وانبثقتْ خيوط الدماء.

تلاشى الغضب. سكنوا. تجمّعتْ حبالٌ كثيرة تقيّده وتجرُّه. ومن بعيد أقبل مقبلٌ يحمل سيفاً لامعاً، فاهتاج الجمعُ مرةً أخرى، وصرخ المستلقي على ظهره بعد أن أُجلس نصفَ جلسة:

ـ اقتلوه، وليُفَرّقْ لحمُه.

لُفّت الرقبةُ بحبل دقيق مشدود. وعندما أقبل السيفُ لم أستطع أن أنقذه. فعندما يكون الكيسُ خالياً، والكراهيةُ شبحاً مسيطراً، لا يكون للحِلْم أو التوسُّلِ مجال. وهوى السيف، فتمزّقتْ انسجة الرقبة، وتابع إلى مشدوداتها من العضلات، واستمرّ حزٌّ حاقدٌ للرقبة.

* * *

مد يده إلى الطعام الذي أمامه:

ـ ماذا قلت عن حليب الناقة؟

ـ يقولون إنّه يشفي مما أنت فيه.

ـ إذن اشترِ الناقةَ ومعها الجمل.

صمت ثم غمغم:

ـ أعتقد أنّك الآن عرفتَ أوصافه؟!

بدأ المتجمّعون حول حادث التصادم يتفرّقون. الهواء المندفع يحمل معه إغراءات المرشّحين. وبقي جسدُ الجمل المصدوم مكانه. واحدٌ فقط وقف يتأمّله. الظلام انزاح بفضل الأنوار الآتية من بعيد. الصفات التي كان يبحث عنها تتجسّد أمامه في هذا الجمل المهشّم. دار حوله يتأمّل قامته:

ـ تحفة، لقد عثرتُ عليه. هذا هو مطلب الوالد، تماماً كما وصفه.

استعدتُ صورته حين تلاشى المرضُ، وبدأت الأوصافُ تأتي وكأنّه يستعرض شيئاً أمامه. لم أستطع وقتها أن أقاطعه؛ مادام يريد مع الناقة جملاً فليس هذا بمستحيل، مع أنّ العودة إلى الأصل قد لا تكون حميدةً في كل الأحوال. ولكنّ تلك النظرة المتوسّلة دفعتني إلى القبول. الحاجة إلى الناقة أو حليبها والعودةُ إلى الخلاء نصيحة مقبولة، غير أنّ الجمل شيء زائد عن الحاجة. ولكنْ هل يمكن أن أردّ رغبةَ محتَضِرٍ؟ وإذا كانت مشكلةُ حليب الناقة قد حُلّت منذ اليوم الأول حين تسابق المتسابقون، فإنّ البحث عن جمل ذي أوصافٍ مدقّقٍ فيها في هذه الأيام أمر صعب. أيهما سيكون أسبقَ من الآخر: الموتُ الزاحف، أم تحقُّقُ وجود الأوصاف الدقيقة التي حدّدَ بها جمله؟ ولكنْ مَنْ يبحثْ يجدْ. ها هو الآن ساكن أمامي، كأنّ رسم الذهن تحوّل إلى واقع. شقوق السنام وانحناءة الرِّجْل لن تغيِّر شيئاً. لقد صَنَعَ الاصطدامُ مصادفةً مطلوبة. هذا الهيكل الضخم والقامة السامقة هما مطلبه. هل عثرا واحدُهما على الآخر مرةً أخرى؟

* * *

تقاطعتْ حوله الأسلاك ليستقرّ بعد ذلك في الشاحنة. برك مستسلماً. الريح تضرب الوجه. بدأ يحرّك رأسه، وعندما لمح المسافة أمامه تمتدّ وتتّسع وتتباعد البيوت المتلاصقة، مدّ رقبته ثم حرّك ساقه الجريح. تململ، تمطّى، مدّ يديه ووقف..

الحديث مع النفس تحوّل إلى الشفاه، إلى حركات غير منتظمة. وكما يتحدّث كان يتحرّك، ويده تحرِّر الجسدَ الساكنَ من بقايا حبال وأربطة أخرى هنا وهناك. لم يكن الهرجُ الذي خلّفه اصطدامُ ليلة البارحة بالأمر الذي يخيف، فجاءت حركاته عاكسةً بوضوح فرحةً تشعّ من أطراف الجسد، فإذا الحيويّة متدفّقة. أما والدي فقد استبدتْ به حركةُ الداخل؛ فكان يقترب ويدور حول جمله متفقّداً، ثم يبتعد وكأنّه يتأمّل لوحةً يحاول أن يستخرج المستكن من بين تعرُّجات الألوان وانعكاسات مساحات الضوء عليها.

أيام تتدافع إلى الأمام. أُقبلُ عليهما من بعيد فأراهما متقاربيْن. أبي منهمك مع مساحيقه وخلطاته السحريّة التي يَفْخر بها، يده تتحرّك حول جروح الجمل. الأفق نهايتُه في العين فقط. من بعيد كان العجوز يتكئ على الأرض محاولاً الوقوف. ألمح انحناءةً، ويده تنطّ إلى خاصرته. كانا وحيدين. توهمتُ مجيء الموت، فجفلتُ من الاقتراب. أتردّد بين الاقتراب أو العودة. أرى من بعيد رأس الجمل الصغير يتحرّك على الرقبة، وخلفهما غبار قادم من الأفق يكاد يفصل بيني وبينهما □.